مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣٤/٢٠١٣ هـ.ق، العدد ٢٠ (١) ٨٨-٧٣

صورة الآخر في رواية "قبل الرحيل" لــ"يوسف جاد الحقّ "

فاطمه كاظم زاده[١]، عبده عبود[٢]، سعيد بزرگ بيگدلي[٣]

تاريخ الوصول: ١٤٣٣/١٢/١٥ تاريخ القبول: ١٤٣٤/٣/١

تعدّ رواية "قبل الرحيل" ليوسف جاد الحق (الروائي السوري المعاصر) من أهمّ الروايات التي تناولت الأحداث والوقائع التي سبقت النزوح الأول للشعب الفلسطيني واحتلال الصهاينة للأراضي الفلسطينية، فقد عرض الكاتب في رواية "قبل الرحيل" مادته العلمية بأسلوب فني ولغة جميلة، داعماً ما مضى إليه بالوثائق التاريخية الهامّة التي تعرضت لمراحل احتلال فلسطين، ورُسمت فيها المرجعيات الذهنية لدى العرب عن الآخر. وتدور أحداث الرواية في فترة هامة من تاريخ فلسطين، وهي إبان الحرب العالمية الثانية. والآخر بالنسبة إلى "الأنا" أو "الذات" العربية– في بحثنا هذا – هو الذي لا ينتمي إلى دائرة الثقافة العربية.

ولقد أكثر الكاتب من صورة الآخر الغربي واليهودي، ففي رواية "قبل الرحيل"؛ نلاحظ صورة مشوّهة وسلبية جداً للآخر الإنكليزي واليهودي وحلفائهما الذين احتلوا الوطن العربي، وساعدوا التسلل الصهيوني إلى الأراضي الفلسطينية. كما رسم جاد الحق صورة الذات العربية الواعية التي تجلت في بعض الشخصيات الروائية، إضافةً إلى دراسة أسباب إخفاق العرب في استرجاع حقوقهم من اليهود التي تمّت بأسلوب أدبي ممتع. و يتبع هذا المقال المنهج الوصفي ـ التحليلي في ضوء الدراسات، الصورولوجية.

الكلمات الرئيسة: الصورولوجيا، الرواية، صورة الآخر، الذات، يوسف جاد الحق، قبل الرحيل.

١. طالبة دكتوراه في كلية العلوم و الفنون القرآنية fatimaka_58@yahoo.com

٢.استاذ في قسم اللّغة العربية و آدابها، بجامعة دمشق. ayabboud@yahoo.de

٣. أستاذ مشارك في قسم اللغة الفارسية و آدابها بجامعة تربيت مدرس sbbigdeli2000@yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

١– المقدمة

يستدعي مفهوم الصورة الأكثر إبهاماً تحديداً أو افتراضاً عملياً يمكن صياغته على النحو الآتي: كل صورة ترتبط بوعي كيفما كان حجمها وكذا بـــالـــ"أنا" في علاقتها بالآخر، وبالـــ"هنا" في علاقته بالـــ"هناك"، وتصبح الصورة من ثمة نتيجة لبعد دال بين واقعين ثقافيين كما تمثّل الصورة واقعاً ثقافياً أجنبياً يكشف عبره المفرد أو الجماعة المكونة له أو مروجته ومتقاسمته عن الفضاء الإيديولوجي الذي يتموضع داخله. (علوش، ١٩٨٧، ص ٤٨)

لا يتشكل وعي الإنسان بصورة حقيقية إلا حين يبدأ علاقته بالآخر الذي يعد نقيضاً ومكملاً للأنا. هذا يعني أن العقل الواعي مطبوع بثنائية قطبية تتحكم بأفعاله وأقواله. والأنا منذ بدايات حياة الإنسان تشعر علاقتها مع الآخر، ومن ثم تنشئ سلسلة من الثنائيات لحياتها: الأنا والآخر، وهنا وهناك، والعدو والصديق ...إلخ. وهذه الثنائيات تعين الحدود بين الأنا والآخر. وهي الصورة التي تتشكل في ذهن الإنسان عن الآخر وترتبط بالمصالح المختلفة، وزمن الاتصال، وكيفيته ومداه، وهذه الصورة ممكن أن تتغير بمرور السنين واختلاف الظروف.

وتعدّ الصورولوجيا[1](دراسة صورة الآخر) من أحدث ميادين البحث في الأدب المقارن، وبها تُعرف مكانة كل أمة لدى غيرها من الأمم، وبها تُرى صورتها في مرآة آداب الشعوب الأخرى. إلا أنّ "الآخر" الذي شغلنا بشدة على امتداد القرنين الماضيين، ولم يزل يشغلنا إلى اليوم، هو "الآخر" الأوروبي والغربي أو الغرب، الذي نحسب عليه إسرائيل أيضاً، لأنّها وليدة التاريخ الأوروبي، وقد أقيمت بمساعدة الغرب، ومارست ولم تزل تمارس سياستها العدوانية التوسيعية بمساعدته.

وأما الرواية فهي جنس أدبي يفسح المجال لمعرفة هذه الصورة من خلال صراع الشخصيات مع ذاتها من جهة، ومع ما يعرف بالآخر الخارجي أو الأجنبي من جهة أخرى.

يسعى البحث في ضوء هذا المفهوم أن يدرس صورة الآخر في رواية "قبل الرحيل" للروائي الفلسطيني المعاصر يوسف جاد الحق، حتي يكون البحث خطوة لتبيين صورة الآخر الأجنبي، ومن ثمّ الوصول إلي فهم كامل للهوية الإسلامية والعربية في فترة هامة من تاريخ فلسطين، وهي إبان الحرب العالمية الثانية وإنشاء دولة إسرائيل. ويرمي البحث من خلال الدراسة إلى أن يظهر كيفية تفاعل الأنا مع الآخر، وأن يكشف مجمل الأفكار والقيم التي تشكل وجدان الشعب العربي.كما يؤكّد بأنّ طريق استيعاء الذات والعالم، هو طريق الهوية والحضارة، ودراسة الروايات خطوة جديدة على طريق هذا الاستيعاء (سليمان، ١٩٨٥، ص ٢٠٣).

٢– أهمية البحث

الهوية و وعي الذات من أهم الموضوعات التي شغلت المفكرين في عصرنا الحديث. وهذه الذات لديها توأم لا يفترق عنها، ولا يمكن معرفتها من دونه؛ ألا وهو الآخر. وبما أنّ الأنا حين تنظر إلي الآخر لا تنقل صورته فحسب؛ بل تنقل صورتها الذاتية أيضاً، ومانريده من مفهوم الصورة، كل صورة تنبثق عن إحساس مهما كان ضئيلاً بالأنا بالمقارنة مع الآخر، فالصورة هي تعبير أدبي أو غير أدبي عن انزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي؛(هنري باجو، ١٩٩٧، ص ٩١) أي: الصورة عرض لواقع ثقافي يستطيع من خلالها الفرد أو الجماعة الذين شكلوها أن يكشفوا أو يترجموا الفضاء الثقافي أو الأيديولوجي الذي يقعون ضمنه. (عبدالله كاظم، ٢٠٠٧، ص٦٣)

1 . Imagelogy

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

هذا البحث يمكن أن يعدّ ضمن دراسات مابعد الاستعمار كما أسماها المفكر العربي إدوارد سعيد؛ لأنه متعلق بحرب تحرير وصراع بين المستعمِر والمستعمَر. ويُقدم فيه صورة الآخر المحتلّ كما صورة الذات الفلسطينية المظلومة، فيعطي الآخر حقّه كما يعطي الذات حقّها. أما اللقاء بين الأنا والآخر فإنه يشكّل قضية فنية أدبية، فقد كان لهذا اللقاء تأثيراته الكثيرة ولاسيما في الأدب ليكوِّنَ بالنتيجة موضوعَ الدارس المقارن. (مجموعة من المؤلفين، ١٩٩٩، ص ١٤٧)

ويبقى واضحاً من بين الأجناس الأدبية أنّ الفن الروائي يعني بنقل وجدان الواقع أكثر من كلّ الأجناس الأدبية الأخرى. ولذا وقع الاختيار على رواية "قبل الرحيل" من بين الروايات الفلسطينية؛ لأنها تتناول الأحداث والوقائع التي سبقت النزوح الأول للشعب الفلسطيني واحتلال أراضي فلسطين من جانب الصهاينة بدقة وبأسلوب فني ولغة جميلة. ومن الممكن أن نعتبر الرواية جزءاً من مذكرات كاتبها الواقعية التي تجدر بالتأمل.

٣- منهج البحث

سلك البحث في هذه الدراسة المنهج التكاملي، فقد أخذ بالمنهج الوصفي والاجتماعي والنقدي، والمدرستين الفرنسية والمادية الجدلية في حقل الأدب المقارن؛ لإظهار العوامل التاريخية والمؤثرات الأجنبية في المضمون والنمط في رواية "قبل الرحيل" بحسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية لفلسطين آنذاك.

إنّ الصورة المرادة في بحثنا هذا هي الصورة الذهنية والقومية التي تُقدّمها الرواية للشعوب الأخرى، وقدرة الرواية على التمثيل، وعرض الصورة بنجاح، مرهونٌ بكونها صادقة. وبالمجمل الصورة تعبر عن صاحبها وأغراضه أكثر مما تعبر عن حقيقة الآخر.(كاظم، ٢٠٠٤، ص ٤٧) والآخر بالنسبة إلى الذات العربية– في بحثنا هذا – هو الذي لا ينتمي إلى دائرة الثقافة العربية.

٥- الدراسات السابقة

وغني عن القول، أنّ صورة الآخر في الرواية والقصة قد عولجت باتساع، كموضوعات وأفكار وعلاقة سياسية واجتماعية واقتصادية. فقد عني باحثون كثر بالتجليات الروائية والقصصية لعلاقة الذات الشرقية والعربية بالآخر الغربي والأوروبي. وأبرزهم جورج طرابيشي في "شرق وغرب" (١٩٩٧)، ومحمد كامل الخطيب في "المغامرة المعقدة" (١٩٧٦)، ونبيل سليمان في "وعي الذات والعالم" (١٩٨٥)، وعصام بهى في "الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة" (١٩٩١)، وسمر هاني قطيش في "صورة الآخر في الرواية السورية ١٩٧٣-٢٠٠٠" (٢٠٠٠)، ونجم عبدالله كاظم في "الرواية العربية المعاصرة والآخر" (٢٠٠٧). وسالم المعوش في "صورة الغرب في الرواية العربية" (١٩٩٨)، وماجده حمود في "صورة الآخر في التراث العربي" (٢٠١٠)، وإبراهيم الحيدري في "صورة الشرق في عيون الغرب" (١٩٩٦)، وعبدالبديع عبدالله في "الذاتية والغيرية والحوار بين الأنا والآخر في الرواية" (١٩٩٥)، وشمس الدين الكيلاني في "الآخر في الثقافة العربية" (٢٠٠٩)، وحسين العودات في "الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتى القرن العشرين" (٢٠١٠)، ونهال مهيدات في "الآخر في الرواية النسوية العربية" (٢٠٠٨)، والسيد ياسين في "الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر" (١٩٦٣)، ولا نستبعد وجود دراسات نقدية حول روايات الكاتب الفلسطيني يوسف جاد الحق، رغم ذلك يمكن القول إنّ الدرس النقدي المقارن

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

لروايته "قبل الرحيل" لم يتناوله باحثٌ حتى الآن.

٤- ملخص الرواية

تبدأ الروايةُ ككلِّ الرواياتِ التقليدية بتحديد المكان الرئيس في الرواية، وهو قرية (يَبْنا) أو القريةُ التي ينتمي إليها البطلُ (الراوي) وقد عاش فيها أهلُهُ منذ قديم العصور، وهو لا يحدِّدُها جُغْرَافِيًّا فحسبُ، بل يتحدّثُ عن موقعها ومبانيها وأزقّتِها، كما يتحدّث عن الأُسَرِ التي تعيش فيها، وعاداتها وتقاليدها وثقافتها ومأكولاتها إلى غير ذلك. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٥)

ثم ينتقل الراوي إلى وصف ما جرى من أحداث في القرية بعد دخول القوات البريطانية، وما فعلوا من ظلم وقتل ودمار. كما يصف مقتل أبيه كأول ظلمٍ قد أبصر "أمين" بعينه. و كيف كان الإنكليز يسلبون العرب حق الحياة ببساطة، ولا يأخذ عليهم أحد. ثم يتحدث الراوي عن مشاكل أسرته من فقر وعزلة و وحدة بعد استشهاد الأب، إلى أن يصل إليهم خبر شهادة صهر خالته الذي استشهد على أيدي الإنكليز أيضاً. يستمر الراوي في الحديث عن الحياة الفلسطينية: العشق- الأعراس- الخصومات بين الأُسَر في القرية- المداواة الشعبية- الأتراح والمآتم- صور الأرض في الفصول الأربعة- القطاف- الحصاد- الدراسة في مدارس القرى- البيّارات، ولا ينسى وصفَ الخيانات وسمسرة بيع الأراضي للغرباء ولحساب الوكالة اليهودية، إلخ. ويروي "أمين" قصة حياته كنموذج للشباب الفلسطينيين، وهو يتخرج من الصف السابع، ولا يستطيع أن يستمر في دراسته، ويتوجه إلى العمل في بيارات البرتقال وقطف الزيتون حتى يساعد أمه في كلفة الحياة. ثم يحصل على الهوية للعمل في معسكر القوات الإنكليزية؛ لأنّ العمل في معسكرات الإنكليز كان جيداً وممتعاً فضلاً عن الأجر المغري. وتستمر الأحداث إلى أن ينتقل الراوي للعمل في محطة (كفر جنس) لسكة الحديد في حين كان يتمنى العرب الفوز للألمان أمام الإنكليز واليهود في الحرب العالمية، ولكن مات هتلر فجأة، وفشلت ألمانيا، وطارت كل آمال العرب. وفي النهاية قدرت هيئة الأمم المتحدة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. فاندلعت الثورة في أرجاء البلد، ورأى العرب أنّه لا سبيل أمامهم سوى حمل السلاح دفاعاً عن الأرض والنفس. ولكن استشهاد قواد الثورة واحداً تلو الآخر، وسقوط مدن فلسطين في أيدي اليهود بمساعدة الإنكليز، دفع الفلسطينيين إلى الرحيل من مدنهم وقراهم التي سيطر عليها اليهود، وفرّوا منها في جنح الظلام. دون أن تساندهم القوات المؤلفة من سبعة جيوش عربية. هرع الناس أفواجاً أفواجاً يعتزمون الرحيل من (يبنا) (قرية الراوي) أيضاً، و لم يهتم أحد بما كان يقول "أمين"، وهو يصيح على لسان أبيه الشهيد: "ابقوا حيث أنتم. لا تبرحوا دياركم، فذلك خير لكم ولأجيالكم القادمة.... لعلكم الآن لا تقدّرون قيمة الأرض التي أنتم فوقها حق قدرها،... بيد أنكم ستعرفون معنى ذلك في قادم الأيام..."(جاد الحق، ١٩٩٧، ص ٣٠٧).

٥- دراسة موجزة عن الرواية

تجري أحداثُ رواية "قبل الرحيل" ليوسف جاد الحق، المؤلفة من ٧٠ مقطعاً و ٣٠٨ صفحة بتسلسل زمني منطقي تقليدي، وتمتدّ أحداثُها زمنيّاً بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٤٨م.

يشرح الدكتور جاد الحق هدفه من كتابة هذه الرواية، ويقول بأنّه كان يريد أن يبين الحالة التاريخية لفلسطين قبل مغادرته ومهاجرته منها. ويرى الدكتور الكتابة عن الحياة الاجتماعية في فلسطين وروايتها للجيل الناشئ، أمانة في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

عنقه. فلذا كتب للأجيال القادمة ولمن أراد أن يبحث في الحياة الاجتماعية الفلسطينية عن تفاصيل خروجه من فلسطين واغتصاب اليهود أراضيها، ويزيد الكاتب: "كتبتُ عن هذه الأيام بتفاصيلها وعن ثورة عزالدين القسام التي عشتها وأذكر تماماً أيام الإضراب الشهير في عهد الانتداب البريطاني الذي دام قرابة ستة أشهر.كتبت عن هذه التفاصيل وما كان يجري في القرية وبين العائلات والمجتمع الفلسطيني عموماً وكذلك الطبيعة والبيئة والمدرسة بالنسبة للطفل والمدرسين. بمعنى إني جسدت تماماً ما كان يجري من حياة يومية من خلال رواييّ قبل الرحيل." (قنديل، ٢٠١٢، http://alqudslana.com/index.php?action=article&id=2745)

الراوي في "قبل الرحيل" هو الشخصيةُ المحوريَّة، وهو "أمينُ بْنُ سليم جابر"، وهو الولد الثاني لأسرة فلسطينية من قرية (يَبْنا)، والدتُهُ "عائشة"، وأخوه الأكبر "سعيد"، ولـــه أخٌ أصغرُ منه "أحمد"، وأختٌ "علياء"، وهو راوٍ ثِقَةٌ. والشخصيات كثيرةٌ جدًّا في هذه الرواية، ولكنّها تظلُّ وسيلةً لغايةٍ، وهي الأحداثُ التي ألَّمتْ بفلسطين قبل النكبة، فأبو سعيدٍ سليمٌ يمرُّ في الرواية مروراً سريعاً قبل أن يخرَّ شهيداً برصاصات طائشة أطلقها المستعمرون، وكذا "أمُّ سعيدٍ" و"نعمة" و"أحمد المصري" و"مي" و"فتحية" و"أمينة" وسواهم.

يروي "أمين" (الراوي) الأحداثَ بأحدِ الضميرين؛ فهو يرويها إما بضميرِ المفردِ الغائبِ (السارد المشاهد) حين يتحدّث عن شخصيةٍ من شخصيات الرواية أو يصفُها. وإما يستخدمُ ضميرَ المفرد المتكلّم (السارد المشارك) حين يتحدّثُ عن نفسهِ أو يصفُ إحساساتِهِ.

وفي هذه الرواية وصفٌ لأمكنةٍ ومدنٍ وقرى كثيرةٍ في فلسطينَ، زارها الراوي أو مرّ بها في رحلاته للعمل هنا أو هناك، ففي رحلته إلى "الخليل" وَصْفٌ لهذه المدينة وللحرم الإبراهيمي فيها، ووصفٌ لـــ(المسجد الأقصى) ومدينة (القدس)، ووصفٌ لمدينة يافا القديمة. (جاد الحق، ١٩٩٧، ص ١٥٤-١٥٩) ويقوم الراوي أيضاً بتحديد زمنِ الرواية وعالِمِها، فثمَّةَ فاصِلٌ بين زمن كتابة الرواية وإنجازِها وبين زمنِ الأحداث الذي يبدأ مع ثورة ١٩٣٦م، وتصل الرواية إلى ذروتها حين يدخل اليهود القرى الفلسطينية بدعم الغرب والأمم المتحدة، وتنتهي بالرحيل عن يَبْنا في عام النكبة (١٩٤٨م).

تتجلّى النكهةُ الفلسطينيةُ في هذه الرواية في العنوان والأمكنة والأحداث واللهجة والأمثال والأغاني والأناشيد وغيرها، ففي العنوان دلالة على النكبة، وعلى أنّ الرواية ذاتُ موضوعٍ فلسطينيٍّ خالصٍ، فالعنوان يشير إلى الرحيل القسريِّ عن الأرض. (موسى، ٢٠٠٨، http://www.startimes.com/f.aspxt=10500234)

٦- الآخر

ترتبط مسألة الرواية في فلسطين بوقوفها وجهاً لوجه مع اليهود والغرب كآخر. والعرب عادةً يعتبرون هذا الآخر كياناً مختلفاً عنهم، و يرسمون له صورة مشوهة بالضرورة وموجودة قديماً. في حين انقسم المثقفون في نظرتهم إلى الآخر (بمعناه العام) إلى قسمين: قسم منهم صار مقلّداً للتيارات الغربية وهو ما نراه في التيارات الفكرية التي تهدّد أسس أدبنا وتزلزل قيمه؛ وقسم آخر وقف ضد التيارات الغربية، وهذا أيضاً نتيجة انبهاره بالآخر. وفي بعض الأحيان يهرب الأديب بخياله إلى الغرب، فهو يودُّ الهروب من مجتمع متأخر تقنياً، وإدارياً، واجتماعياً. وقد تنبع صورة الآخر من تناقض حضاري، أو سياسي بين الأمة التي ينتمي

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

إليها الأديب، وأمة أو أمم أجنبية. (عبود، ١٩٩١، ص ٣٧٦) وهناك يُحاوَل أن يُشرَح عن الآخر في هذه الرواية، وماهي مواقف الراوي –وهو ممثل للذات العربية– تجاه هذا الآخر الأجنبي؟

٦-١- الآخر الإنكليزي

تُبرز صور الإنكليز ودورهم في حياة أسرة "أمين" بل كل الأسر والمدن الفلسطينية من الصفحات الأولى للرواية. فقد قتلوا أبا "أمين" بطلقة رصاص دون أيِّ ذنب أو خطأ. ومن ثمّ تحولت مراسيم تشييع جثمان الشهداء إلى مظاهرة تندد بالجناة وتطالب بالاستقلال، وسقوط بلفور. لم ير الناس أي حقّ للإنكليز نسلب حق الحياة من الفلسطينيين ولا يحاسبهم أحد على ذلك. من هنا بدأ الكاتب برسم مشاهد الأحداث التدميرية وقتل المواطنين الفلسطينيين على أيدي الإنكليز في الرواية، كما فوجئت أسرة "أمين" بخبر استشهاد خطيب ابنة خالته بعد استشهاد أبيه. ويشرح الراوي بدقة نوعية مراسم تأبين الشهداء، ولم تتمكن أي أسرة أن تقيم مأتماً علنياً لشهيدها كي لا ينكشف أمر الشهيد، وانتماؤه لأسرة معينة من قبل الدوريات الإنكليزية. (جاد الحق، ١٩٩٧، ص ٢١) وكان يسأل "أمين" نفسه عن أسباب معاناة شعبه وقتلهم بهذه البساطة دون أن يجد جواباً لسؤاله! أو عن سبب وضع الإنكليز علامات على بعض المنازل والدكاكين والمقاهي لكي يقوموا بنسفها بعد أيام! وفي مشهد آخر يرسم الكاتب يوماً عاقب الإنكليز فيه جماعة من الناس حين فشلوا في الكشف عن الثوار:

"بدأ الرصاص يئز فوق رؤسنا ومن حولنا في كل اتجاه... وتعمّدوا أن يصيب رصاصهم عدداً من الناس. أن يقتلوا بغير تعيين... المهم أن يصنعوا المآسي في هذا اليوم لكي يصبح تاريخاً." (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٣٨-٣٩)

أثناء أحداث الرواية يفهم البطل سبب عدوان الإنكليز ضد العرب والأستاذ "عبدالخالق" يشرح للتلاميذ بأن الإنكليز احتلوا بلاد العرب ليجلبوا إليها اليهود من وراء البحار، من كل أرجاء العالم ليكون فلسطين وطناً قومياً يجتمع فيه يهود العالم. ويؤكد الأستاذ على اتفاق اليهود والإنكليز على عداوة العرب، طمعاً في ثروات بلادهم. وهكذا غُرست شجرة النفور والكراهية في قلب "أمين" تجاه الإنكليز واليهود منذ الطفولة.

ثم نفهم عبر الرواية الصورة التي دوّنت في ذهن العرب حول ميزات الإنكليز الأخلاقية من الخيانة وعدم الوفاء بالعهد، كما وعدوا شعب فلسطين بمنحه الاستقلال في أقرب فرصة ممكنة بعد انتهاء الحرب، ولكن ما رموا إلّا الخديعة وصرف العرب عن الأهداف السامية. وغير هذا من سياستهم المعتمدة في كل زمان ومكان "فرّق تسد". هم أوقعوا الشقاق بين العرب حتى يشغلوا بأنفسهم ويختلفوا معاً، ليصل العدو من جراء ذلك إلى أهدافه ببساطة. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٥٨-٦١)

وأيضاً يصف الراوي قساوة الضباط البريطانيين في قتل مجموعات من الناس، أو سرقة ما يلقوه في حوزتهم، أو الاعتداء على الناس بالضرب والشتيمة،كأنّهم ساديّون يجدون لذتهم في تعذيب ضحاياهم حتى الموت، ويعشقون اقتراف الجرائم! (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٨٦)

ففي مشهد من الرواية تروى نوعية إقامة حفلة عيد رأس السنة الميلادية في إحدى المعسكرات الإنكليزية، ويشرح "أمين" مدى إسرافهم في الطعام والمسكرات والصخب والصياح كما يستغرب ابتذال اليهوديات في أحضان الرجال، ورقص الإنكليز على إيقاع الموسيقي الصاخبة التي تصمّ الآذان. وهكذا يرسم الكاتب الصورة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

السلبية للإنكليز سياسياً وأخلاقياً عند العرب والمسلمين. ومن الممكن أن يعتبر هذا الأمر من الخلافات الموجودة بين الثقافة العربية والغربية حيث لا يمكن مقارنة الأعياد العربية والإسلامية بالأعياد المسيحية والغربية أبداً.

على أيّة حال لقد أدرك العرب منذ ذلك الزمن بأنّ الإنكليز هم أسباب فساد هذا الكون، وحتى الزلازل حين تقع لابد وأن يكون لهم يد فيها. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٣١)

وتستمر الرواية، ويتناول جاد الحق مراحل اغتصاب الأراضي الفلسطينية من جانب اليهود بمساعدة الإنكليز:

"البيارات تخضع للرهونات لبنوك في يافا وتل أبيب. أما من رفضوا التعامل معها فقد جفت أشجارهم لعدم قدرتهم على مواصلة خدمتها... نعم الإنكليز هم الإنكليز. وعداؤهم لن يتغير... اليهود أيضاً مابرحوا يتدفقون على البلاد، والمستعمرات ماأنفكت تقام في أماكن كثيرة، لم يستطع أهل البلاد وقفها رغم ثوراتهم المتعاقبة... ومن حكام البلاد من هو ضالع مع الغرباء... يقدم لهم خدمات."(جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٧٦)

والشيء الغريب أنّ بعض أبناء الشعب العربي رافقوا الإنكليز ليحاربوا الألمان، أو ليعملوا في المعسكرات الإنكليزية لصالح اليهود! وهذا الأمر يعدّ نموذجاً لعدم وحدة العرب قبال العدو، ولو كانت الظروف سيئة وصعبة بالنسبة لمواطني العرب، فمع ذلک لا يوجد أيّ مبرر لهذا الاختلاف والانحراف. هذه الأمور نفسها كانت من أهمّ اسباب انتصار الإنكليز في احتلال الأراضي الفلسطينية لصالح اليهود! ويشير الراوي بأنّ تلك الأرض التي يقيمون عليها المستعمرات هي أرض منحت من قبل المندوب السامي نفسه وفقاً للمستندات التاريخية، هذا المندوب كان هربرت صموئيل ذلك اليهودي الذي نصّبوه مندوباً سامياً على فلسطين أول عهد الانتداب، موكلين إليه أمر تهيئة الظروف الملائمة للهجرة اليهودية، وإقامة المستعمرات على الأرض الأميرية لكي تستوعب مهاجريهم. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٧٨)

٦-٢- الآخر اليهودي

إنّ أول كلام جاء به جاد الحق عن اليهود في "قبل الرحيل" يرجع إلى ما قاله الأستاذ "عبدالخالق" حول توافق اليهود والإنكليز الذي مهد السبيل لوعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧. ومن ثم يستمر الكاتب في إزالة الستار عن خطوات اليهود السرية التي ينفذها الإنكليز، مثلاً يشير إلى شنق واحد وعشرين مجاهداً مرة واحدة باتهام قتل شاويش لم يعرف أهو إنكليزياً أم يهودياً؟! (جاد الحق، ١٩٩٧، ص ٥٨)

ومن ثمّ يتناول الكاتب ما فعله اليهود ضد الفلسطينيين، وكيفية اغتصابهم الأراضي العربية، ولهذا ينقل الراوي قصة رجل جاء إلى قرية (يبنا) وادَّعى أنّها المكان الذي قضى نصف عمره في البحث عنه، و يريد أن يشتري قطعة من الأرض يقيم عليها منزلاً و بيارة. ولكن يفاجيء المالك يوم التوقيع على عقد البيع بأنّ الرجل يحمل توكيلاً عن يهودي، و هو ليس إلّا وسيطاً فكشفت خدعة الرجل وقتلوه الأهالي. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٨٨-٩٠)

إذن الخدعة كانت من الطرق الهامة للوصول إلى الهدف عند اليهود، وتستفيد منها "سارة" اليهودية أيضاً لإقناع "أمين" وهي قائلة:

"لا تكره اليهود... لأنهم بؤساء مساكين. هتلر يقتلهم. وهم يأتون إلى هذه البلاد للنجاة بأرواحهم. هم عائدون إلى أرضهم الموعودة." (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٦٩)

وحين يستفسر "أمين" عن معنى "عائدون إلى أرضهم"،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

تلتزم صديقتها الصمت.

وفي مشهد آخر يشرح الراوي بأنّ "سارة" تخرج كتيباً، وتقدمه لـــ"أمين"، وكانت في الكتيب صور لشوارع في المستعمرات اليهودية، ومصانع الأقمشة، فتيات شبه عاريات، والجنود اليهود في الفيلق اليهودي المقاتل مع الحلفاء في شمال أفريقيا. ثم تسأل "سارة":

"أرأيت لماذا يجب أن تحب اليهود؟ عندهم أشياء كهذه ليس عندكم مثلها. يعني عندهم حضارة. عارف حضارة ماذا تعني؟ ...وأجابها أمين: يا آنسة سارة هذه حضارة البلاد التي جئتم منها. وحضارة تلك البلاد أصلها من العرب..." (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٧٣)

هنا يؤكد الراوي على أصالة الحضارة الشرقية ويفخر بها أمام الحضارة الغربية الحديثة التي لا جذور لها ولا بذور. كما يشير إلى أنّ اليهود ليس لهم أية أصالة؛ لأنّهم لا يملكون أيّ وطن، فهم اجتمعوا من البلدان المختلفة وسلبوا أراضي فلسطين حتى يصنعوا لأنفسهم حضارة مرتجلة وتاريخ مصطنع.

يصف الراوي إحدى المستعمرات اليهودية باسم "رخبوت" ويصور لنا أبنيتها وسكانها، ويشير إلى الحوانيت ذات الألوان والكتابات والرسوم الغريبة على واجهتها، ويتعجب من نساء حاسرات غير محتشمات، بملابس تبدي أجسادهن. و تثير استغرابه المباني ذات الطوابق العديدة المحاطة بالحدائق، وسطوح المباني من القرميد الرمادي والأحمر. ثم يقارن هذه المستعمرة مع المدن العربية ولاسيما (يبنا)، ويؤكد بأنّ الناس هنا غير الناس في قريته ويصدّق قول ما قال: يهود لا دين له. (جادالحق، ١٩٩٧، ص١٤٠-١٤١) هنا يبرز نوعاً آخر من الخلافات بين الثقافة الشرقية والغربية اللتين لا تستطيعان أن تمتزجا أبداً.

من الناحية الأخلاقية يشرح البطل "أمين" ما رأى من الفساد والابتذال بين اليهود. كما يصف ابتذال اليهوديات في أحضان الرجال شبه عاريات، أو ما شاهد في مقاهي وكازينوهات مستعمرة رخبوت من شرب الخمر أو العلاقات الجنسية بين النساء والرجال. ثم ينتقد البخل البشع المتأصل فيهم الذي طالما سمعنا به عن اليهود. فمثلاً اعتذر أبو سارة أن يضيّف "أمين" وصديقه للعشاء وقال: طعامنا معدّ ولا مجال لدعوة الآخرين! (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٩٧-١٩٩)

في مكان آخر نتعرف على حيل اليهود لكي يتقربوا من العرب. فهم عارفون مدى نفور العرب من الإنكليز، واستغلوا هذا الأمر، لنرى كيف تخادع "سارة" "أمينَ" وتقول:

"سوف نعيش بعد الحرب معاً عرباً ويهوداً. جنباً إلى جنب، في سلام و وئام. وأنّ الإنكليز سيرحلون ذات يوم. بل يجب أن يرحلوا، فهم الذين يوقعون بيننا وبينكم يا أمين، لكي يبرروا بقاءهم هنا. نحن وأنتم يجب ألا نعطيهم هذه الفرصة. نريدهم فقط بالقدر الضروري لتحقيق أهدافنا... إذا بقي هؤلاء الإنكليز هنا فلا تكون لنا دولة خاصة بنا." (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٨٨) وفي بقية كلامها تعلن معرفتها بتأزم العلاقات بين العرب واليهود، وتنصح العرب بأنّ عليهم أن يوطنوا أنفسهم على العيش مع اليهود دونما ثورات! وتحذرهم من التجارب الماضية وموت الكثير من العرب في مقابلاتهم مع اليهود. هكذا نرى مدى وقاحة اليهود في اعتبار أنفسهم ذوي حقوق في الأراضي الفلسطينية، وكأنّهم كانوا أصحابها والعرب محتلين لها.

وتظهر في كلامهم رائحة الخيانة والغدر لكل البشر، فاليهود خانوا حلفاءهم الإنكليز بعدما وصلوا إلى أهدافهم. فمثلاً قتلوا في القاهرة شخصية بريطانية هامة (اللورد

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

موين)، وتصاعدت هجماتهم الإرهابية ضد البريطانيين، فهاجموا البنوك من أجل السرقة، وأضرموا النار في مبان حكومية، وداهموا المطارات فدمّروا عدداً من طائرات (سبتفاير) و (هاليفاكس). و نسفوا باخرة المهاجرين من اليهود في خليج يافا وضحوا بكل مَن على متنها بجريمة بشعة فقط لكي يلصقوا بالإنكليز تهمة إعاقة الهجرة. في حين أنّ إنجلترا جاءت بهم إلى فلسطين، وفرضت على أهلها الأصليين والشرعيين وجوداً لهم فيها.

وبدا هذا الأمر واضحاً للجميع إذ مادام اليهود ينشطون ضد أولياء نعمتهم أنفسهم على هذا النحو الإجرامي الحاقد، فماذا عساهم يصنعون مع العرب أعدائهم؟! إذن ليس من غير المتوقع المشاهد التي رسم لنا الراوي من مجازر ارتكبها اليهود بحق العرب في المدن الفلسطينية المختلفة حين دخلوها وذبحوا أهلها، النساء قبل الرجال، والأطفال قبل الشيوخ، هدموا البيوت فوق أصحابها، بقروا بطون الحوامل، عرضوا النساء عرايا في الطرقات قبل أن يجهزوا عليهن، ربطوا الشبان بمصفحاتهم يجرّونهم على الأرض حتى تتحطم أجسادهم ويلقوا نحبهم. إنّهم لم يكونوا يقتلون الناس وحسب، بل كانوا يتفننون في القتل والتعذيب والتمثيل، لكأنهم يستمتعون بذلك. يوقفون الناس أمام جدار ثم يحصدونهم بالرشاشات. يسقط العشرات بل المئات ثم تحملهم الشاحنات حتى الجرحى الذين لم يقض الرصاص عليهم، ويلقون بهم في جوف مقبرة جماعية يهال التراب على الأحياء والأموات معاً. ثم يمضي الجناة كأن شيئاً لم يكن! (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٢٧٩و٢٩٤)

وبهذا الطريق غصبوا فلسطين ومدائنها، رغم نضال أبنائها، وكتبوا على جبين التاريخ وحشيتهم التي ما كان نظير لها ولن يكن.

٦-٣- الآخر الألماني

أول صورة رُسمت للألمان في الرواية ترجع إلى الحرب العالمية الثانية ومحاربة دول الحلفاء ومن ضمنها بريطانيا مع دول المحور ومن ضمنها ألمانيا. ويشير الراوي إلى الصورة الإيجابية لدى الألمان عند العرب، لأنّهم كانوا يأملون أن يريحهم هتلر من الإنكليز. في الحقيقة ماكان الفرق بين الحلفاء والمحور بل يقف الفلسطيني مع من سوف يقضي على الإنكليز واليهود معاً فيخرج أولئك من بلاده، فقد كانت انتصاراتهم تدخل البهجة إلى قلوب العرب. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١١٤)

لقد أبرز أولئك الألمان حسنَ نيتهم نحو العرب، بما أبدوه دائماً من نصرة لقضاياهم، وتأييد لثوراتهم المتعاقبة. كما أن العرب يلمسون ذلك حقيقة واقعة بعد أن أمست ألمانيا مأوى لزعماء المناوئين للإنكليز. مثلاً فوزي القاوقجي قائد الثوار سافر إلى ألمانيا من أجل المعالجة، وعالجه الألمان وأنقذوه من الموت. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٢٠٢-٢٠٣)

الناس باتوا يترقبون الأصوات تهدر مبشرة بهزيمة الإنكليز وحلفائهم وبالنصر المؤكد لألمانيا ودول المحور.كان يتردد هذا الصوت بين الناس دائماً: نعم هم الألمان يحيون العرب، فمتى يأتي أولئك لكي يريحونا من هؤلاء الأوغاد. ومن جانب آخر حاول اليهود تشويه صورة الألمان بتذكر قصة مجزرة اليهود على أيدي هتلر والنازية، وتظاهروا بالمظلومية وعدم الأمن حتى يلجأوا إلى ما سمّوه أرض الميعاد! (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٦٩)

وعندما أسفرت الحرب عن هزيمة الجيوش الألمانية على الجبهة مع الحلفاء، لم يصدق الناس ذلك. أو لم يشاؤوا أن يصدقوا بأنّ تلك الأسطورة التي رسمت في مخيلتهم عن

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

القوة الألمانية، التي لا تقهر، يمكن أن تهزمها قوة على وجه الأرض. وانتشر خبر انتحار رومل، إلى أن انتهت الحرب العالمية بفوز الحلفاء وهزيمة هتلر وبقي اليهود في أرض فلسطين. وراجت هذه الرؤية التي لا تستند إلى وثيقة أو حقيقة، إثر إعلانات الغرب ولاسيما ألمانيا. والوثائق التاريخية تؤيد بأنّ القسم الكبير من مهاجري اليهود إلى فلسطين في تلك الفترةكانوا من تجّار أو علماء ألمانيين، وهم الذين أسّسوا مجتمع اليهود المستوطنين في فلسطين لأول مرّة.

٦-٤- الآخر الفرنسي

يذكر جادالحق بعض الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون بحق العرب ولاسيما في سوريا ويقارنهم بالإنكليز في فلسطين، فكلاهما من الدول الاستعمارية وحاربا لاستثمار الوطن العربي، فهما متفقان لمصلحة اليهود. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٥٠-٥١)

يقدم الراوي لنا صورة الفرنسي المشوهة عند العرب ويصف ما فعله قائلاً: "الفرنسيون كانوا يقصفون أحياء دمشق ومدناً أخرى. كما أنّهم يهاجمون المجلس النيابي السوري، فيقتلون الحامية التي دافعت عن مبني البرلمان... قامت المظاهرات في كافة أرجاء فلسطين، معلنة الاحتجاج والاستنكار... ضد الاستعماريين الفرنسيين. أحس الفلسطينيون أنّ إخوتهم في سوريا يتعرضون لمثل الذي يقع لهم... قيل أنّ أحياء برمتها أحرقت (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٢٢٠) وهكذا يشير الكاتب إلى الأحداث التاريخية في معاملة فرنسا للسوريين، ويكتب عن بعض الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون بحق السوريين.

٦-٥- الآخر الأمريكي

لقد عُرفت أمريكا في "قبل الرحيل" منذ بداية كلام الأبطال عن الحرب العالمية، وبما أنّ أمريكا كانت من الحلفاء، ومن محامي الأنكليز، إذن احتلت مكانة سلبية في أذهان العرب بل لعنوها: "هذه الأمريكا اللعينة تعلن الحرب على الألمان... لكنها تخسر ورب الكعبة!" (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٣١)

يتحدث الراوي عن واقعة مدينة "هيروشيما" اليابانية التي ألقيت فوقها قنبلة واحدة من جانب أمريكا. ودمرت المدينة تماماً، وأفنت جميع الأحياء بما فيها من إنسان وحيوان ونبات، فقد لقي ما يربو على مئة ألف من البشر، حتفهم في لحظة واحدة. عقدت الدهشة ألسنة البشر وكان يردد العرب: وأي قلب متحجر هذا الذي يأمر بجريمة على هذا القدر من الهول والجسامة؟! وفي متابعة الرواية يخبرنا الراوي بأنّ الرئيس الأميركي (ترومان) الذي أصدر الحكم بإلقاء القنبلة على هيروشيما، أعلن عن هجرة مئة ألف يهودي إلى فلسطين على الفور. والإنكليز من جانبهم يعلنون إحالة القضية برمتها إلى تلك الهيئة التي أسموها (هيئة الأمم المتحدة). وفي النهاية تقرر الهيئة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. فاشتدّ نفور العرب من أمريكا حين أعلن ترومان اليهودي اعتراف بلاده بالتقسيم فور صدوره، ومفاخراً بأنّ أمريكا بنفوذها وسطوتها كانت وراءه. بل مضيفاً بأن دولته سوف تموّل هجرة الآلاف المؤلفة من اليهود من شتى أقطار الأرض للعودة إلى دولتهم الجديدة.. أرض الميعاد. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٢٢١و٢٧٥-٢٧٦)

إذن اكتسبت الدولة الأمريكية صورة سلبية عند العرب ولاسيما الفلسطينيين، بما أنّها وقفت إلى جانب اليهودي المحتل، وأغمضت عينيها أمام الواقعية التاريخية والشرعية التي تعطي الحق للفلسطينيين في امتلاكهم أراضي بلدهم وأجدادهم.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

٦-٦- الآخر البولندي

ينحصر الآخر البولندي في "قبل الرحيل" بالنساء البولنديات اللاتي شاهدهنّ "أمين" وصديقه "نعيم" في المستعمرات اليهودية والمعسكر البريطاني. والبولنديون كانوا من اليهود الذين نزحوا عن بولونيا إثر احتلال الجيوش الألمانية لها، وأقاموا في أراضي فلسطين بذريعة أن ليس لهم مكاناً أو بلداً ليعيشوا فيه.

ويشير الراوي إلى سلوكهم وحياتهم المتطورة وأغراضهم الجميلة والثمينة. كما يصور جمال نسائهم بهذه الكلمات: "بياض بشرتهن بلون الحليب، شعرهن بلون الذهب، عيونهن في زرقة مياه البحر، وتضفي عليهن سحراً تلك البزات العسكرية الضيقة والقصيرة..." (جادالحق، ١٩٩٧، ص١٢٧و ١٧٤).

٧- الأنا

إنّ الراوي في "قبل الرحيل" لديه سلطة نافذة في هذه الرواية، وهو الذات الفلسطينية. فـــ"أمين" يمثّل رجال الوطن، وهو رمز لوعي الذات العربية، والأنا العربية أيضا تتجلّي في فئة من الناس الذين وقفوا أمام المحتلين وحاربوا من أجل الحرية.

فالرواية تؤكد وعي الذات العربية لكل ما حدث من الاحتلال والاستعمار، كما يحاول الأستاذ "خالق" أن ينبه التلاميذ بما حدث للأراضي الفلسطينية، ويعرّف الأعداء ويكشف عن أهدافهم وأطماعهم في ثروات البلد العربي. من ثم يركز الراوي على ضرورة الوحدة العربية للوصول إلى الحرية، ونرى أبطال الرواية من فلسطين أو سوريا أو مصر يعتبرون أنفسهم أبناء أمة واحدة، كما أنّ قضاياهم واحدة، وتاريخهم واحد، وكذلك مصيرهم ومستقبلهم واحد. فهم الذين أيقنوا بأنّ الجهاد هو السبيل الوحيد إلى تحرير البلاد من المستعمرين، فرنسيين كانوا أم من الإنكيز، وبالتالي منع هجرة اليهود والحفاظ على أرض الوطن. (جادالحق، ١٩٩٧، ص ١٥٣)

ولكن لماذا لم تفلح الذات بطرد العدو من بلادها؟ فهذا أمر تناوله الكاتب بأسلوب دقيق و وثيق:

لقد دخلت الجيوش العربية المؤلفة من سبع دول عربية فلسطين. وقد استطاعت تلك القوات أن تبلغ مدينة غزة وكانت تقصف القوات المستعمرة وتتابع مسيرها إلى أسدود. وقرية أسدود جارة (يبنا) الجنوبية، فلهذا كان أهالي (يبنا) بانتظار دخول الجيوش العربية، الأمر الذي ما تحقق قطّ! فالأيام مضت و لم يصل الجيش؛ لأنّ القائد الأعلى الملك فاروق (الرئيس المصري) أمر بتحرك الجيوش نحو الشمال لكي يكسب القوات موقعها المتميز. وحين أعرب أعضاء الوفد من (يبنا) عن قلقهم بالنسبة لقريتهم وقالوا: إنّ قريتنا تسقط إذن، و وحدنا لن نقدر على صدّ القوات اليهودية، أجابها الضابط المنتمي إلى قوات الجيش العربي:

"تقول قيادتنا، أيها السادة ليحتلها اليهود اليوم، لنخرجهم نحن منها غداً" (جادالحق، ١٩٩٧، ص ٣٠٤)

ومثل هذه القضية حدثت لكثير من القرى والمدن الفلسطينية فاحتلها اليهود و لم يخرجوا منها حتى الآن؛ يعنى عدم وجود وحدة العرب -بمعناه الحقيقي- أدّى إلى احتلال فلسطين، و تراجع العرب عن مواضعهم، الأمر الذي مهّدَ لتقدّم العدو. وفي النهاية يرسم الراوي مشهد هجرة أبناء (يبنا) منها مؤملاً رجوعهم إليها مع القوات الزاحفة القادمة، و"أمين" كان يصرخ:

"ابقوا حيث أنتم. لا تبرحوا دياركم، فذلك خير لكم ولأجيالكم القادمة...إن تصبروا فالنصر آتٍ لا محالة...لعلكم الآن لا تقدّرون قيمة الأرض التي تربضون

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

فوقها حق قدرها... بيد أنّكم ستعرفون معنى ذلك في قادم الأيام إذا ما قدّر لكم أن تفقدوها وإنّي لأرى ذلك رأي العين. وما أنا إلّا ناصح لكم وأمين."(جادالحق، ١٩٩٧، ص ٣٠٧)

لقد ظهرت من القرن الماضي الذوات الوطنية القومية العربية بمحتوياتها المثالية، و واقعها النقيض. و لم تفعل كثيراً من أجل الدفاع عن الذوات الوطنية العربية الشقيقة... و"خلال تصادم هذه الذوات مع دولة إسرائيل، وعلى الرغم من وجود رغبات بالإطاحة بهذا الجسد الغريب بالنمو والتحصين، تتجه نحو الإعتراف بالفكر القومي العبري في فلسطين، وتطالب بالسلام، معترفة بالطابع القومي للكيان الإسرائيلي ككيان عبري!"(لبيب، ١٩٩٩، ص ٣٥٥)

ومن الجدير بالذكر بأنّ "أمين سليم جابر" لم يكن في نهاية الأمر سوى يوسف جاد الحق، فكلاهما من (ينا)، وأعمارُهما متقاربةٌ جدّا، وكلاهما شاهدا ما جرى قبيلَ النكبة، واكتويا بنار الرحيل، وعاشا في الشتات، ثمّ إنّ دلالة اسم أمين تكادُ تنطبقُ على دلالةِ اسم يوسف، فالنبي يوسف هو الأمينُ الحقيقي، ولذلك كان الراوي أميناً على سرد الأحداث ودقّتِها وتوثيقها.

٨- الخاتمة

تتناول رواية "قبل الرحيل" الأحداث والوقائع التي سبقت النزوح الأول للشعب العربي الفلسطيني، وعملية التسلل الصهيوني إلى فلسطين في ظلّ الانتداب البريطاني الداعم لعصابات القتل والتدمير والمساند لها. ويصور لنا الكاتب بأسلوب فني ولغة جميلة نماذجَ حيَّة من نضال أبناء فلسطين وتقديمهم قوافل الشهداء، ومنطلقاً من واقعية الحدث وأمانته للأبعاد والظروف التي سبقت ورافقت اغتصاب فلسطين بروح موضوعية وحس قومي أصيل.

وهذه الرواية من أهم الروايات الفلسطينية التي تناولت موضوع الصراع العربي- الصهيوني، كما بيّنت صورة الآخر الأجنبي سواء أكان من المستعمرين أم من المحتلين أم من حلفائهم في أذهان المجتمع العربي. ونستطيع أن نعدّ "قبل الرحيل" مسرحية كاملة تعرض المواجهات والعلاقات بين القوات المحلية والوطنية مع اليهود وعملائهم. وهنا لدينا صورتان: صورة الذات المتمثلة في "أمين" وكل من الشخصيات الفلسطينية الواعية الذين بذلوا جهدهم وأحياناً حياتهم للدفاع عن الأرض، وهذه صورة إيجابية إلى حدٍ ما. والصورة الثانية، صورة الآخر الأجنبي والموقف الذي اتخذه العرب منه وفقاً لما ما جاء في "قبل الرحيل". ومن الممكن أن نقسم صورة الآخر الأجنبي في هذه الرواية إلى قسمين أيضاً:

- صورة الآخر السلبية التي شملت اليهود والمحتلين للأراضي الفلسطينية، إنكلترا المستعمرة وحليفتها فرنسا. كذلك رسمت صورة مشوهة عن الآخر الأمريكي عند العرب بما فعلوا لحماية اليهود وتمهيد الطريق أمامهم لاغتصاب فلسطين، وهذه الصورة المشوهة تتجه نحو بولونيا التي كانت هي أيضاً حامياً ومدافعاً لليهود.

- صورة الآخر الإيجابي التي جسدت ألمانيا لا غير. والألمان دافعوا عن العرب ضد إنكلترا واليهود وساعدوا ثوار العرب في محاربتهم المحتلين، ولهذا بقي في ذهن العرب صورة إيجابية عنهم.

المصادر والمراجع

الف) المصدر

[١] جادالحق، يوسف: (١٩٩٧)، **قبل الرحيل**، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

ب) المراجع

[٢] بهي، عصام، (١٩٩١)، الرحلة إلى الغرب في الرواية العربية الحديثة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[٣] حمود، ماجدة، (٢٠١٠)، صورة الآخر في التراث العربي، بيروت، دار العربية للعلوم ناشرون

[٤] الحيدري، إبراهيم، (١٩٩٦)، صورة الشرق في عيون الغرب، بيروت، دار الساقي

[٥] الخطيب، محمد كامل، (١٩٧٦)، المغامرة المعقدة، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

[٦] سليمان، نبيل، (١٩٨٥)، وعي الذات والعالم:دراسات في الرواية العربية، اللاذقية، دار الحوار.

[٧] طرابيشي، جورج: (١٩٩٧)، شرق وغرب: رجولة وأنوثة، بيروت، دارالطليعة.

[٨] عبدالله، عبدالبديع، (١٩٩٥)، الذاتية والغيرية والحوار بين الأنا والآخر في الرواية، القاهرة، مكتبة الآداب

[٩] عبود، عبده، (١٩٩١)، الأدب المقارن مدخل نظري ودراسات تطبيقية، حمص، جامعة البعث.

[١٠] عدد من المقارنين الفرنسيين، (١٩٩٩)، الوجيز في الأدب المقارن، بإشراف: بيير برونيل و إيف شيرفيل، مترجم: غسان السيد، لامكان

[١١] علوش، سعيد، (١٩٨٧)، مكونات الأدب المقارن، بيروت، دار البيضاء.

[١٢] العودات، حسين، (٢٠١٠)، الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس حتي القرن العشرين: عرض تاريخي، بيروت، دار الساقي.

[١٣] قطيش، سمر هاني، (٢٠٠٥)، "صورة الآخر في الرواية السورية ١٩٧٣-٢٠٠٠"، رسالة ماجستير، جامعة دمشق.

[١٤] قنديل، عبدالله، ٢٠١٢/١/٢٤، "يوسف جاد الحق في حوار خاص مع مؤسسة القدس للثقافة والتراث"، *http://alqudslana.com/index.php?action=article&id=2745*

[١٥] كاظم، نادر، (٢٠٠٤)، تمثيلات الآخر (صورة السود في المتخيل العربي الوسيط)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

[١٦] كاظم، نجم عبدالله، (٢٠٠٧)، الرواية العربية المعاصرة والآخر، الأردن، عالم الكتب الحديث.

[١٧] الكيلاني، شمس الدين، (٢٠٠٩)، الآخر في الثقافة العربية: صورة شعوب الشرق الأقصي في الثقافة العربية الوسيطة: الصين و الهند و جيرانهما، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب

[١٨] لبيب، الطاهر، (١٩٩٩)، صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

[١٩] المعوش، سالم، (١٩٩٨)، صورة الغرب في الرواية العربية، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة.

[٢٠] مهيدات، نهال، (٢٠٠٨)، الآخر في الرواية النسوية العربية: خطاب المرآة والجسد والثقافة، إربد، عالم الكتب الحديث.

[٢١] موسى، خليل، ٢٠٠٨/٦/٢٥، "الراوي في قبل الرحيل"

[٢٢] هنري باجو، دانيل، (١٩٩٧)، الأدب العام

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

المقارن، مترجم: غسان السيد، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.

[٢٣] يسين، السيد، (١٩٨٣)، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، بيروت، دارالتنوير.

[٢٤] *http://www.startimes.com/f.as px?t=10500234*

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

سیمای "دیگری" در رمان "قبل الرحیل" اثر یوسف جاد الحقّ

فاطمه کاظم زاده[١]، عبده عبود[٢]، سعید بزرگ بیگدلی[٣]

تاریخ دریافت: ١٣٩١/٨/١٠ تاریخ پذیرش: ١٣٩١/١٠/٢٤

رمان "قبل الرحیل" اثر نویسنده‌ی فلسطینی یوسف جاد الحق از مهم ترین رمان‌هایی است که به حوادث و وقایع پیش از خروج فلسطینی ها واشغال سرزمین هایشان توسط صهیونیست ها می پردازد. نویسنده در این رمان اطلاعات و دانسته های خود را به روشی هنرمندانه و زبانی زیبا ارایه نموده و آن را با تکیه بر مستندات تاریخی مهمی که درخصوص مراحل اشغال فلسطین در اختیار داشته مزین ساخته است. نویسنده "قبل الرحیل" ذهنیات عرب‌ها درباره دیگری را به تصویر کشیده است. مقصود از دیگری در این تحقیق که در مقابل "ذات" یا همان "خودی" قرار می گیرد، هر آن کسی است که به فرهنگ عربی منتسب نباشد.

در این رمان نویسنده سیمای "غرب" و "یهود" را بیش از سایرین ترسیم کرده است. چنانچه تصویری خدشه دار و سیاه و منفی از انگلیسی ها، یهودیان ودیگر هم پیمانان‌شان در اشغال سرزمین فلسطین ارایه کرده است. دکتر جاد الحق همچنین سیمای ذات آگاه عربی را که در برخی شخصیت های داستان متجلی شده، ترسیم می کند وعوامل شکست عرب‌ها در بازپس گیری حقوق‌شان از یهودیان را به شیوه ای ادیبانه و زیبا بیان می کند.

کلید واژگان: تصویر شناسی، رمان، سیمای دیگری، خودی، یوسف جاد الحق، قبل الرحیل.

١. دانشجوی دکترا زبان و ادبیات عرب، دانشکده علوم و فنون قرآن fatimaka_58@yahoo.com

٢ . استاد، گروه زبان و ادبیات عرب، دانشگاه دمشق. ayabboud@yahoo.de

٣ . دانشیار، گروه زبان و ادبیات فارسی، دانشگاه تربیت مدرس sbbigdeli2000@yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]

The Aspect 'Other' in the Novel *Qabl al-Raheel* by Yusuf Jad a-Haq

Fatima Kazemzadeh[1], Abdoh Abboud[2], Saeed bozorg bibdeli[3]

Received: 2012/10/31 Accepted: 2013/1/13

Abstract

Qabl al-Raheel or "Before Departure" by Palestinian writer Yusuf Jad al-Haq is one of the most important novels that discusses events related to the first exodus of the Palestinians and the Zionist occupation of Palestinian lands. He presents the whole events in a beautiful style and language, supporting his presentation with historic documentaries which deals with stages of the Palestinian occupation. The author also depicts the Arab mentality about others that refers in this research against "essence" and the same "self" that are not attributed to the Arab culture..

In this work, the author sketches "Western and Jewish" as others, by firstly deforming the images of those who occupied the Arab World and helped the Zionist appropriate Palestine, secondly by portraying the Arab essence in some of the characters. Jad al-Haq also discusses, in an interesting literary style, the factors of Arab failure in regaining their usurped rights from the Jews.

Keywords: Image; Novel; The Other; Self; Yusuf Jad al-Haq; Qabl al-Raheel.

1 . Ph.D. candidate, Dept. of Arabic Language and Literature, Faculty of Quranic Siences and Arts. fatimaka_58@yahoo.com
2 .Professor, Dept of Arabic Language and Litraturo, Damascus University. ayabboud@yahoo.de
3 .Associate Professor, Dept of Arabic Language and Litvatur, Tarbiat Modares University. sbbigdeli2000@yahoo.com

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-25]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1434.20.1.1.7]